القدس ملتقى الأديان التوحيدية

المطران عطاالله حنا

رئيس أساقفة سبسطية الروم الأرثوذكس بفلسطين

الملخص

القدس ملتقى الأديان. هذه هي حالها اليوم. يلتقي فيها أهلها على مختلف دياناتهم، ويلتقي فيها أيضاً المؤمنون حاجّين إليها من كل بقاع العالم. ولكنها اليوم أيضاً مدينة تعاني الاحتلال الإسرائيلي بحق مقدساتها ومؤسساتها وشعبها.

الرؤية الفلسطينية المسيحية هي رؤية فلسطينية ومسيحية في آن؛ هي رؤية مسيحية؛ إذ ترى في القدس مدينة الجذور المسيحية، فيها بدأ كل شيء وتم كل شيء في ما يختص بالديانة المسيحية. فيها عاش السيد المسيح وعلم وصنع المعجزات، ومات وقام وصعد إلى السماء. وفيها نشأت المسيحية؛ فهي المدينة الأم، وهي الكنيسة الأم لجميع كنائس العالم.

كمسيحي هي عاصمة إيماني، وكفلسطيني أرى فيها عاصمة مدنية وسياسية لدولة فلسطينية مستقلة. والرؤية الفلسطينية المسيحية هي، بالإضافة إلى ما تقدم، رؤية شمولية لا تستثني أحداً بل ترى كل أحد وتحترم كل أحد، ومن ثم تلتقي فيها مع الإسلام ومع اليهودية أيضاً ديناً وصلاة، لا سياسة ولا عسكراً ولا جيوشاً محتلة .

وبما أن لها هذا الطابع المقدس والشمولي فإنيَ أرى أن يكون لها وضع خاص يضمن من جهة حقي فيها كمواطن وكمؤمن مسيحي، ويضمن حرية جميع المؤمنين فيها ومن العالم كله. ومن ثم، فإن السلطة السياسية التي تحكمها يجب أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الطابع الشمولي لها، فتجعل لها وضعا خاصاً كعاصمة سياسية للدولة الفلسطينية، وكعاصمة روحية للبشرية.

من يحكم القدس اليوم من واجبه أن تكون له هذه النظرة الشمولية. القدس أياً كان مُخضعُها أو حاكمُها هي التي تُخضع مُخضعيها وتحكم حكّامها، إلا إن ظلموا واختاروا طريق الاستثناء والتفرقة، كما هو الحال اليوم مع السلطاتَ الإسرائيَلية.

هناك اليوم احتلال إسرائيلي. وإسرائيل تريد أن تقصي عنها الفلسطيني المسلم والمسيحي على السواء، فتجرده من الهوية وحق الإقامة فيها، وتدمر بيوته، أو تصادرها أو تمتنع عن إصدار الترخيص له للبناء فيها. بل جردت السياسةُ الإسرائيلية الفلسطينيين من حقهم الطبيعي في الإقامة في القدس واستبدلت به حقاً تمنحهم إياه أو تجردهم منه لهدف تهويد المدينة. وجعلتهم غرباء مقيمين فيها.

جاء في مذكرة بطاركة ورؤساء الكنائس المسيحية في القدس، التي نشروها عام **2006**، حول الوضع الخاص لها، ما يلي:

1 – الحق في حرية العبادة والضمير للجميع، للأفراد والجماعات الدينية.
2 – المساواة بين جميع سكان المدينة أمام القانون، بالاتفاق مع القرارات الدولية.
3 – حرية الوصول إلى القدس للجميع؛ المواطنين، والمقيمين، أو الحجاج، وذلك في كل وقت، في زمن الحرب والسلم على السواء. ولهذا يجب أن تكون القدس مدينة مفتوحة.
4 – احترام حقوق الكنائس المختلفة في التملك والحراسة والعبادة التي اكتسبتها عبر التاريخ، والتي يحميها حتى الآن نظام «الستاتو كوو» للأماكن المقدسة، المستند إلى «فرمانات» تاريخية ووثائق أخرى. وكل هذه الوثائق، يجب أن يستمر الاعتراف بها واحترامها.

القدس ملتقى الأديان. هذه هي حالها اليوم، يلتقي فيها أهلها على مختلف دياناتهم، ويلتقي فيها أيضا المؤمنون حاجّين إليها من كل بقاع العالم. ولكنها اليوم أيضاً مدينة صراع سياسي بسبب الاحتلال الإسرائيلي الممارس بحق مقدساتها ومؤسساتها وشعبها. ومع ذلك كله هي مدينة الله. فالتعامل معها ومع أهلها هو تعامل مع الناس، مع أهلها، ومع الله سبحانه وتعالى. مع الله سبحانه، ليكون الإنسان فيها مصلّياً خاشعاً أمام ربه، مسبِّحاً له، مستمدّاً نورًا من نوره – سبحانه تعالى – وحكمة من حكمته، للتعامل مع الناس، أي مع أهلها، ومع الحاجين إليها، ولإيجاد الطرق المناسبة والمنسجمة مع قداسة الله ومحبته في الصراع الدائر فيها.

سأتكلم على القدس من وجهة نظر فلسطينية مسيحية، وأترك لسائر الخطباء في هذا المؤتمر الموقر أن يتكلموا على القدس من وجهة نظر فلسطينية إسلامية، أو من وجهة نظر عالمية إسلامية، أو عن القدس مدينة للمؤمنين فيها من الديانات الثلاث.

الرؤية الفلسطينية المسيحية هي رؤية فلسطينية ومسيحية في آن واحد. هي رؤية مسيحية؛ إذ ترى في القدس مدينة الجذور المسيحية؛ فيها بدأ كل شيء وتم كل شيء في ما يختص بالديانة المسيحية. فيها عاش السيد المسيح وعلم وصنع المعجزات ومات وقام وصعد إلى السماء. وفيها نشأت المسيحية. وما زالت فيها كنيسة القيامة المجيدة وسائر الأماكن المقدسة شاهدة لما حدث فيها. فهي المدينة الأم، وهي الكنيسة الأم لجميع كنائس العالم، وهي الموئل الأول لكل مسيحي، والمراكز العالمية المسيحية الأخرى – أياً كانت أهميتها أو مركزيتها بالنسبة إلى الملايين من المسيحيين – تنظر هي أيضاً إلى القدس كمدينة الجذور والمدينة الأولى في المسيحية.

كمسيحي هي عاصمة إيماني، وكفلسطيني، ورثتُ الأجيالَ والتاريخَ فيها، أرى فيها عاصمة مدنية وسياسية لدولة فلسطينية مستقلة. وبناء على هذين الأساسين يضع المسيحي الفلسطيني رؤيته في المدينة المقدسة. القدس مدينة فيها حقوق وواجبات للإنسان كإنسان، وللإنسان الفلسطيني المسيحي والمسلم

كمواطن. وبقدر ما استطاع ساكن القدس، الفلسطيني المواطن والمؤمن، أن يسمُوَ بسمُوّ المدينة، بالمقدار نفسه استحق بل استطاع أن يغالب القوى المعادية فيها اليوم والتي تريد أن تقصيه عنها.

والرؤية الفلسطينية المسيحية هي، بالإضافة إلى ما تقدم، رؤية شمولية لا تستثني أحداً بل ترى كل أحد وتحترم كل أحد. ومن ثم تلتقي فيها مع الفلسطيني المسلم أخاً ومواطناً، مشاركاً في حاضر واحد وفي غد واحد. تلتقي مع الإسلام في صلاته وإيمانه بالله وفي تقديسه للمدينة التي أرادَها الله أن تكون مقدسة. ومع الإسلام، تلتقي فيها مع اليهودية أيضا ديناً وصلاة، لا سياسة ولا عسكراً وجيوشاً محتلة ، فنحن نحترم الديانة اليهودَية ونقر بوجود أتباع لها في هذا العالم، ولكننا في نفس الوقت ندين الصهيونية العنصرية والاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية الفلسطينية، ونستنكر كافة المحاولات الهادفة لإعطاء تبريرات دينية للاستعمار والاحتلال الإسرائيلي.

القدس اليوم مركز صراع ليس فقط بين الإسرائيليين والفلسطينيين أو بين المسلمين واليهود، بل هي مركز صراع عالمي؛ لأن أفئدة المؤمنين في العالم كله ترنو إليها وترى فيها عاصمة روحية لها. وبسبب الشمولية التي لها، كونها مقدسة للديانات الثلاث، بل كونها موئلاً ليس فقط للديانات الثلاث بل للبشرية كلها، فأنا أحترم فيها كل مؤمن يصلي فيها أو يحج إليها، وأستقبله وأهيئ له سبل صلاته وحجه.

وبما أن لها هذا الطابع المقدس والشمولي الذي يُغني ملكيّتي لها لكوني فلسطينياً، فإني أرى أن يكون لها وضع خاص يضمن من جهَة حَقي فيها كمواطن وكمؤمن مسيحي ويضمن حرية جميع المؤمنين فيها ومن العالم كله. ومن ثم السلطة السياسية التي تحكمها يجب أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الطابع الشمولي لها، فتجعل لها وضعاً خاصاً يحتويها كعاصمة سياسية للدولة الفلسطينية وكعاصمة روحية للبشرية. وضعاً خاصاً يحترم الحقوق السياسية للفلسطيني المسلم والمسيحي وحقوق كل حاجٍّ إليها من بقاع الأرض قاطبة.

كمسيحي فلسطيني وكنائس قائمة فيها منذ أن مرَّ بها السيد المسيح وفيها نشأت المسيحية، نشأت كنيسة مسيحية وتنوّعت بلغاتها وطقوسها وتعددت، ولكل منها حقوقها التي اكتسبتها عبر الأجيال، وأهمها حريتها في العقيدة والعبادة والنمو والتعليم والبناء كما اعترفت بها الدول التي تعاقبت عليها منذ نشأة المسيحية فيها، ثم مع قدوم الإسلام في القرن السابع وأخيراً مع تعاقب الدول فيها انتهاء بالفترة العثمانية التي حددت حقوق وبقاء الكنائس فيها. وأقرّت الأنظمةُ التي تلتها في فترة الانتداب البريطاني ثم الحكم الأردني كل هذه الحقوق التي ضمنت حتى اليوم بقاء الكنائس فيها بجميع رعاياها المسيحيين.

فمن يحكم القدس اليوم من واجبه هو أيضاً أن يحترم كل هذا التاريخ الماضي، ومن واجبه أن تكون له هذه النظرة الشمولية، فلا يتعثر في إطار ذاتي من الدين أو الثقافة أو السياسة. القدس أياً كان مُخضعُها أو حاكمُها هي التي تُخضع مخُضعيها وتحكم حكّامها، إلا إن ظلموا واختاروا طريق الاستثناء والتفَرقة كماَ هو الحال اليوم مع السلطات الإسرائيلية. القدس تدعو حكامها إلى أن يكوّنوا لهم ذاتاً مثل ذاتها وطبيعة مثل طبيعتها: هي مكان مقدّس لله، فيه ترتفع الصلوات والابتهالات، وهي مكان صلاة أمام الله، وليست أداة حرب أو قتال. ومع هذه القداسة لا يمكن أن يستقيم فيها الظلم أو الاستثناء والتفرقة العنصرية، ولا يمكن أن يستقيم الفساد، فساد الحكام والاستبداد بالناس. إنها مهمة صعبة، ورؤية قد تكون بعيدة عن مواقف رجال السياسة وحكامها. ولكن، هذه هي المدينة المقدسة وهذه متطلباتها: كما يعانق الله فيها جميع من هم فيها في البر والصلاح، لا في الظلم أو الفساد، كذلك يحترم حكامها الفلسطينيون في غد قريب إن شاء الله كل من فيها في البر والعدل والصلاح.

والمؤمنون أنفسهم، أهل القدس، هم أيضاً يعتبرون ما لمدينتهم من قداسة وشمولية يكون فيها كلُّ مؤمن مُخْلصاً لإيمانه إخلاصاً كاملاً، ويَرحَبُ قلبُه ليتّسع للمؤمن المختلف عنه ويتيح له أن يكون هو أيضاً مُخلصاً الإخلاص

الكامل لإيمانه. هكذا تكون العلاقة فيها بين المؤمنين من مختلف الديانات. هو موقف يتطلب التسامي فوق الذات البشرية، والنظر إلى سمو الله الذي أراد أن يضفي على هذه المدينة شيئاً من سموه.

هناك اليوم احتلال إسرائيلي للقدس. وإسرائيل تريد أن تقصي الفلسطيني المسلم والمسيحي على السواء عنها، فتجرده من الهويات وحق الإقامة فيها، وتدمر بيوته، أو تصادرها أو لا تصدر الترخيص له للبناء فيها. بل بدلت السياسةُ الإسرائيلية الفلسطينيين أساساً من كونهم أهلَ المدينة يسكنونها بقوة حقهم الطبيعي فيها مثل كل إنسان في أرضه ووطنه، بدّلتهم إلى غرباء مقيمين فيها. وحقُّ الإقامة تمنحهم إياه السلطة المحتلة، بينما هو حق أصيل لهم. أنكرت السلطات الإسرائيلية المحتلة حقهم الأصيل واستبدلت به حقاً موهوباً ومرهوناً بظروف أمنية وبمخططات عنصرية تهدف إلى تفريغ المدينة المقدسة من أهلها لتصبح مدينة يهودية فقط. ومن بقوا منهم يجوز للسلطة الإسرائيلية أن تبقيهم أو تبعدهم، أو تقلِّص وجودهم بمختلف الإجراءات، مثل السور الذي فصل بين أحياء المدينة، فجعل قسماً منهم مقيماً في القدس، وقسماً مقيماً خارجها ولا حق له فيها.

مثل هذه الإجراءات نقض لطبيعة القدس. فالمدينة المقدسة لكل أهلها، ومدينة المعيشة اليومية لهم بكل متطلباتها السياسية والثقافية والاجتماعية. ونحن نقول: إن هذه الإجراءات لا يمكن أن تصدر عن إيمان مؤمنين، بل عن حكام ظالمين يخالفون قوانين العلاقات بين الشعوب وحقوق الشعوب ليتفردوا بالمدينة. بل هم يمحون بجرة قلم ألفي سنة من التاريخ جعلت لها وجهاً إنسانياً شمولياً، ووجهاً عربيّاً مسيحيّاً ومسلماً، منذ الفتح الإسلامي، مع بقاء بعض اليهود فيها عبر القرون أيضاً. وعجلة التاريخ لا تسير إلى الوراء.

اختار الله المدينة عبر التاريخ لتكون ملتقى للأديان. والرؤية الفلسطينية المسيحية تحترم مشيئة الله كما ظهرت عبر التاريخ. تحترم قداستها وشموليتها، ومع احترامها لكل أهلها ترى وجودها المسيحي الخاص بها إيماناً وحقوقاً وطنية على أساس المواطنة والمساواة الكاملة فيها. وهكذا يجب أن يصنعها

حاكمها الفلسطيني، ونرجو أن يتحقق ذلك عن قريب إن شاء الله، فلا يستثني ولا يميز، بل يتيح لقداسة المدينة أن توحد جميع أهلها مع اختلافاتهم الدينية أو العرقية، وتحترم أهلها وضيوفها؛ أي الحجاج إليها. ولا تحوّل أياً من أهلها إلى ضيوف يقيمون بتأشيرة دخول ويخرجون بانتهاء زمن التأشيرة أو لمتطلبات يقال إنها أمنية.

جاء في مذكرة بطاركة ورؤساء الكنائس المسيحية في القدس التي نشروها عام 2006:

"في عام 1994، أصدرنا، نحن البطاركة ورؤساء الكنائس المسيحية في القدس، مذكرة بعنوان "المفهوم المسيحي للقدس"، أكدنا فيها الوجه المسيحي للقدس وأهمية الحضور المسيحي فيها. وتطرقنا أيضاً في المذكرة نفسها إلى الوضع السياسي الخاص الذي يجب أن يكون للمدينة بسبب قدسيتها. ومنذ ذلك الوقت، شهدنا لدى السلطات السياسية نزعة متزايدة لاتخاذ الإجراءات الأحادية الجانب لتقرير مصير المدينة وتحديد وضعها. وأصبح بل ما زال وصول مؤمنينا والعاملين في مؤسساتنا إلى المدينة المقدسة أمراً صعباً. ومع بناء السور أُخرِجَ عدد كبير من مؤمنينا خارج حدودها، وسوف يُخرَجُ عدد آخر أكبر منه في المَستقبل القريب على ما يبدو..."

ثم قالوا: «القدس تراث للإنسانية ومدينة مقدسة، ولكنها أيضاً مدينة الحياة اليومية لسكانها... ولكل من ارتبط بهم بالربط العائلية، ولكل من كانت القدس لهم مكان الصلاة والمدرسة ودور العلاج والعمل. المدينة المقدسة عزيزة وفريدة لكل واحد من أبناء الديانات الموحدة الثلاث، ليس فقط بسبب ما فيها من ذكريات تاريخية وأماكن للحج، بل بسبب وجود الجماعات الحية فيها أيضاً من المؤمنين المسيحيين والمسلمين. ولا يمكن الفصل بين الأماكن المقدسة والجماعات الحية التي تعيش فيها.

«وحبّاً بقداسة المدينة، ومن أجل خدمة أهلها، وُجدَ فيها العديد من المؤسسات الدينية المسيحية. وقد اعترفت بها السلطَات المتعاقبة عبر الأجيال، واكتسبت بذلك حقوقاً مكَّنتها من القيام بالتزاماتها تجاه المدينة

المقدسة وسكانها. ومن ثم، لا بد من احترام هذه الحقوق الأساسية لتلك المؤسسات وحقوق الأفراد جميعاً في المدينة. حقوق الأفراد هي تلك التي تمكِّنُهم من القيام بواجباتهم الدينية والسياسية والاجتماعية، ومن تلبية جميع حاجاتهم في المجالات نفسها الدينية والتربوية والثقافية والطبية. وحقوق المؤسسات تشمل حق التملك والإدارة الحرة للمنشآت اللازمة للقيام بخدمتهم لمؤمنيهم ولنموهم الإنساني - بصورة عامة - من كنائس وأديرة ومدارس ومستشفيات ومؤسسات اجتماعيات ومعاهد لاهوتية وكتابية وأماكن استقبال للحجاج إلخ...».

وقد حدد رؤساء الكنائس مضمون الوضع الخاص بما يلي:

1 - الحق في حرية العبادة والضمير للجميع، للأفراد والجماعات الدينية.

2 - المساواة بين جميع سكان المدينة أمام القانون، بالاتفاق مع القرارات الدولية.

3 - حرية الوصول إلى القدس للجميع، المواطنين، والمقيمين، أو الحجاج، وذلك في كل وقت، في زمن الحرب والسلم على السواء. ولهذا يجب أن تكون القدس مدينة مفتوحة.

4 - احترام حقوق الكنائس المختلفة في التملك والحراسة والعبادة التي اكتسبتها عبر التاريخ، والتي يحميها حتى الآن نظام «الستاتو كوو» للأماكن المقدسة، المستند إلى «فرمانات» تاريخية ووثائق أخرى. وكل هذه الوثائق، يجب أن يستمر الاعتراف بها واحترامها.

هذه هي الرؤية الفلسطينية المسيحية للمدينة المقدسة. رؤية فلسطينية ومسيحية وشمولية. نسأل الله أن يزيل العدوان وأن يمن على مدينته المقدسة بالسلام والعدل والطمأنينة.

وبما أننا نتحدث عن القدس وعن أهميتها الروحية للأديان كافة فإننا نود التأكيد أن المسيحيين العرب هم جزء لا يتجزأ من الأمة العربية ثقافة وانتماء وهوية. كما أن الفلسطينيين المسيحيين هم جزء من هذا الشعب ومن قضيته العادلة، والقضية الفلسطينية هي قضية عربية إنسانية إسلامية ومسيحية.

* * *